مجلة العلوم العربية والإنسانية
جامعة القصيم، المجلد (٩)، العدد (٣)، ص ص ١١٨٧-١٢٢٦، (رجب ١٤٣٧هـ/ إبريل ٢٠١٦)

أسلوب الترقي وتصعيد المعاني في سورة القارعة

د. خالد محمد العثيم
أستاذ مساعد -كلية الملك خالد العسكرية
الحرس الوطني، الرياض

ملخص البحث. أسلوب الترقي وتصعيد المعاني من الأساليب التي يزخر بها القرآن الكريم، وقد احتفى به العلماء، حتى نصّ الزمخشري على أن علم المعاني، لا يقتضي غير أسلوب الترقي.

وهو من المباحث الدقيقة في البلاغة القرآنية، وقد حاولت تتبع هذه الظاهرة، وتلمس جمالها وبيان أسرارها، وذلك من خلال تطبيقها على سورة القارعة، مستعيناً بأهم المباحث البلاغية التي تضمنتها هذه السورة، كالتشبيه، والمقابلة، وبراعة الاستهلال، والشرط والجزاء، والاستفهام، والتكرار، وهذا الأسلوب يتسع لينتظم مباحث عدة من مباحث البلاغيين، والتي تقوم على مراعاة الملاءمة بين المعاني، والربط فيما بينها، كالتخلص، وحسن النسق والتعريج، بيد أن أسلوب الترقي وتصعيد المعاني، ينتقل بين المعاني على سبيل تصعيدها، والوصول إلى ذروتها في المعنى الواحد.

المقدمة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

أمّا بعد:

فإنّ المتأمل في هذا الكتاب الحكيم يرى عجباً من مظاهر الإعجاز، التي كلما زاد الإنسان فيها تفكراً واعتباراً، تجددت له معانيه أبكاراً، وهذا من بركة القرآن وتدبره ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾[١].

وكتاب بهذه المنزلة حريّ بطالب اللغة والبلاغة شحذ همته لدراسته، والوقوف على شيء من أساليب القرآن العظيم (أسلوب الترقي وتصعيد المعاني)، وهو أسلوب خفي دقيق يأخذ بالنفس إلى منتهاها، من خلال تتبع تلك المعاني والغوص في أعماقها حتى تكتمل تلك الصورة الصاعدة للمعنى، موظفاً فيه كثيراً مما تحويه الآية أو الآيات من أساليب بلاغية.

لذا رأيت دراسة هذا الأسلوب دراسة علمية متخصصة، ذات منحنى تطبيقي، فاخترت (سورة القارعة) لتكون مجالاً للتطبيق عليها، وقد سميت البحث (أسلوب الترقي وتصعيد المعاني في سورة القارعة)، ولم أجد دراسة علمية تناولت أسلوب الترقي وتصعيد المعاني في هذه السورة.

وثمّة أبحاث في هذا المجال، منها (أسلوب الترقي والتدرج في القرآن الكريم)[٢] للدكتور عبدالله محمد سليمان هنداوي، وهي دراسة شمولية جيدة لكنه لم يتناول سورة معينة.

---

(١) سورة ص: ٢٩.

(٢) نشر هذا البحث في مجلة كلية اللغة العربية، **جامعة الأزهر، فرع** الزقازيق مجلد ١١ العدد ١٣: ٥٣٩-٥٨٣.

وبحث للدكتور ناصر بن عبدالرحمن الخنين، وقد تناول فيه (سورة الزلزلة)، وهو بحث يتسم بالعمق، وعنوانه (أسلوب الترقي وتصعيد المعاني في سورة الزلزلة)[٣].

وقد حاولت جهدي بلا تكلف، أن أرصد هذا الترقي والتصعيد في سورة القارعة من بدايتها حتى نهايتها، كخط بياني، أتتبعه صعوداً ونزولاً في معنى متحد ومضمون واحد، وقد راوح منهج البحث بين المنهج التاريخي، والوصفي التحليلي.

وقد سار البحث في خطته العلمية على جانبين:

الأول: الجانب التنظيري متمثلاً في بيان الآتي:

أ) المعنى اللغوي للترقي والتصعيد.

ب) مواضع بحث الترقي والتصعيد في الدراسات البلاغية والقرآنية.

ثانياً: الجانب التطبيقي:

أ) موضوع سورة القارعة، ومقامها.

ب) عناصر النظم المؤثرة، في أسلوب الترقي، وتصعيد المعاني في السورة، وذلك حسب الآتي:

١- براعة الاستهلال.
٢- الاستفهام والتكرار.
٣- ظرف الزمان.
٤- التشبيه.
٥- الشرط والجزاء.
٦- المقابلة.

والله أسأل أن يسدد الجهد، ويحسن القصد، وأن ينفع به ويبارك.

أولاً: الجانب النظري

المعنى اللغوي للترقي والتصعيد:

جاء في معاجم اللغة من معاني "رقا" أنها بمعنى: التدرج، والصعود، والارتفاع، يقول ابن منظور: رقي إلى الشيء رُقيًّاً وارتقى

(٣) نشر هذا البحث في مجلة العلوم العربية، جامعة الإمام، العدد ١٩، ص: ٧٠-١٠٠.

يرتقي وترقى: صعد..، ويقال: ما زال فلان يترقى به الأمر حتى بلغ غايته...، وترقى في العلم، أي: رقي فيه درجه(٤).

وأما التصعيد فهو من مادة الفعل الثلاثي "صعد"، وقد قال-عن معنى أصله اللغوي -ابن فارس ما نصه: "الصاد، والعين، والدال، أصل صحيح، يدل على ارتفاع ومشقة، من ذلك الصعود خلاف الحدور، ويقال: صعد يصعد...، والصعود: العقبة الكؤود، والمشقة من الأمر: قال الله تعالى: چ □ □ چ (المدثر: ١٧)

ومن الباب الصعداء، وهو تنفس بتوجع: فهو نفس يعلو، فهو من قياس الباب(٥)

وجاء في اللسان: صَعِد المكان صُعوداً، وأصعد، وصَعّد: ارتقى مشرفاً(٦).

وقال الراغب الأصفهاني: الصعود: الذهاب في المكان العالي(٧).

وقال الفيروز آبادي والإصعاد، قيل: هو الإبعاد في الأرض، سواء كان ذلك صعوداً أو حدوراً، وأصله من الصعود، وهو الذهاب إلى الأمكنة المرتفعة، كالخروج من البصرة إلى نجد، ، ثم استعمل في الإبعاد وإن لم يكن فيه اعتبار الصعود، كقولهم: تعال، في أنه في الأصل دعاء إلى العلو، ثم صار للمجيء، سواء كان إلى أعلى أو إلى أسفل، قال تعالى چ ه ھ چ، قيل: لم يقصد بقوله: (إذ تصعدون) إلى الإبعاد في الأرض، وإنما أشار به إلى علوهم فيما تحروه وأتوه، كقولهم: أبعدت في كذا، وارتقيت فيه كل مرتقى(٨).

وفي كلام الفيروز آبادي ملمح دقيق، يشير به إلى أن الإصعاد ليس محصوراً بالصعود، بل إنه يتعدى ذلك إلى الحدور، وهو ما نراه ماثلاً

---

(٤) لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الافريقي (بيروت، دار صادر، د.ت) ، مادة رقا.

(٥) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ت/ عبد السلام هارون (بيروت، دار الجيل) ١٤٢٠، مادة صعد

(٦) لسان العرب: مادة: صعد.

(٧) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ت/ محمد سيد كيلاني (بيروت، دار المعرفة، د.ت) ، مادة: صعد.

(٨) بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (بيروت، المكتبة العلمية) د. ت، بصيرة في صعد.

في المعاني القرآنية، فأنت تجد بعض الآيات آخذة في صعود تراتبي من الأدنى إلى الأعلى، وفي موضع آخر تجده من الأعلى إلى الأدنى، وهو ما سنراه في الجانب التطبيقي من هذا البحث.

– مواضع بحث الترقي والتصعيد في الدراسات البلاغية والقرآنية:

لا نكاد نجد هذا المصطلح عند أصحاب الدراسات البلاغية، الذين اشتهروا بتأصيل وتقعيد البحث البلاغي، كعبدالقاهر الجرجاني، أو أبي يعقوب السكاكي، أو الخطيب القزويني؛ وإنما وردت إشارات عامة في مواضع متفرقة، أغلبها بالدراسات القرآنية المنقرة عن أسرار التنـزيل ولطائف الإعجاز، في مواضع كالتقديم والتأخير، وترتيب المفردات، ونظم الكلمات، وتقديم الأولى على ما دونه.

فقد نبه عليه الزمخشري في الكشاف، في مواضع تتعلق بالتقديم والترقي من الأدنى إلى الأعلى، وهذا ظاهر في تفسيره للبسملة(٩).

بل نصّ الزمخشري على أن علم المعاني لا يقتضي غير أسلوب الترقي، (١٠) وزاده تقريراً "ابن المنير" في حاشيته على الكشاف، في الموضع الذي ذكر فيه الزمخشري مضمون جملته فقال: (ونحن نمهد تمهيداً يرفع اللبس، ويكشف الغطاء عن قانون البلاغة في الترقي، فنقول: النكتة في قاعدة الترقي، والتي تستلزم مراعاته في الكلام البليغ التنائي عن التكرار، والسلامة عن النزول، وهي توجب في مواضع تقديم الأعلى، وفي مواضع تأخيره، فإذا اعتمدت ذلك، فمهما أدى إلى أن يكون آخر كلامك نزولاً بالنسبة إلى أوله، أو يكون الأخر مندرجاً في الأول قد

---

(٩) انظر: الكشاف للزمخشري، ت. محمد عبدالسلام شاهين (بيروت، دار الكتب العلمية) ، ط/١، ١٤١٥هـ، ٤٥/١، ٢١٤/١.

(١٠) انظر: الكشاف: ٥٨٧/١ ورد ذلك في تفسيره قوله تعالى:(لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا) (النساء: ١٧٢) في تقديم ذكر المسيح على الملائكة.

أفاده وأنت مستغن عن الآخر، فاعدل عن ذلك إلى ما يكون ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، واستئنافاً لفائدة لم يشتمل عليها الأول)[١١].

ويشير إليه الزركشي إبان حديثه عن التقديم والتأخير في برهانه حيث أفرد فصلاً عن أنواع التقديم، قال: "السابع عشر: الترقي.

كقوله: ﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا﴾[١٢]، الآية، فإنه سبحانه بدأ منها بالأدنى لغرض الترقي، لأن منفعة الرابع أهم من منفعة الثالث، فهو أشرف منه، ومنفعة الثالث أعم من منفعة الثاني، ومنفعة الثاني أعم من منفعة الأول، فهو أشرف منه".[١٣]

وقد قارب الطيبي[١٤] تعريفه بقوله: "والترقي أن يذكر معنى، ثم يردف لما هو أبلغ منه، ومثل له بقوله تعالى: ﭽ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﷾ ﷿ ﭼ[١٥]، وقوله -سبحانه-: ﭽ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ ﯔ ﯕ ﯖ ﯗ ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ ﯤ ﯥ ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ ﰖ ﰗ ﰘ ﰙ ﰚ ﰛ ﰜ ﰝ ﰞ ﰟ ﰠ ﰡ ﰢ ﰣ ﰤ ﰥ ﰦ ﰧ ﰨ ﰩ ﰪ ﰫ ﰬ ﰭ ﰮ ﰯ ﰰ ﰱ ﰲ ﰳ ﰴ ﰵ ﰶ ﰷ ﰸ ﰹ ﰺ ﰻ ﰼ ﰽ ﰾ ﰿ ﱀ ﱁ ﱂ ﱃ ﱄ ﱅ ﱆ ﱇ ﱈ ﱉ ﱊ ﱋ ﱌ ﱍ ﱎ ﱏ ﱐ ﱑ ﱒ ﱓ ﱔ ﱕ ﱖ ﱗ ﱘ ﱙ ﱚ ﱛ ﱜ ﱝ ﱞ ﱟ ﱠ ﱡ ﱢ ﱣ ﱤ ﱥ ﱦ ﱧ ﱨ ﱩ ﱪ ﱫ ﱬ ﱭ ﱮ ﱯ ﱰ ﱱ ﱲ ﱳ ﱴ ﱵ ﱶ ﱷ ﱸ ﱹ ﱺ ﱻ ﱼ ﱽ ﱾ ﱿ ﲀ ﲁ ﲂ ﲃ ﲄ ﲅ ﲆ ﲇ ﲈ ﲉ ﲊ ﲋ ﲌ ﲍ ﲎ ﲏ ﲐ ﲑ ﲒ ﲓ ﲔ ﲕ ﲖ ﲗ ﲘ ﲙ ﲚ ﲛ ﲜ ﲝ ﲞ ﲟ ﲠ ﲡ ﲢ ﲣ ﲤ ﲥ ﲦ ﲧ ﲨ ﲩ ﲪ ﲫ ﲬ ﲭ ﲮ ﲯ ﲰ ﲱ ﲲ ﲳ ﲴ ﲵ ﲶ ﲷ ﲸ ﲹ ﲺ ﲻ ﲼ ﲽ ﲾ ﲿ ﳀ ﳁ ﳂ ﳃ ﳄ ﳅ ﳆ ﳇ ﳈ ﳉ ﳊ ﳋ ﳌ ﳍ ﳎ ﳏ ﳐ ﳑ ﳒ ﳓ ﳔ ﳕ ﳖ ﳗ ﳘ ﳙ ﳚ ﳛ ﳜ ﳝ ﳞ ﳟ ﳠ ﳡ ﳢ ﳣ ﳤ ﳥ ﳦ ﳧ ﳨ ﳩ ﳪ ﳫ ﳬ ﳭ ﳮ ﳯ ﳰ ﳱ ﳲ ﳳ ﳴ ﳵ ﳶ ﳷ ﳸ ﳹ ﳺ ﳻ ﳼ ﳽ ﳾ ﳿ ﴀ ﴁ ﴂ ﴃ ﴄ ﴅ ﴆ ﴇ ﴈ ﴉ ﴊ ﴋ ﴌ ﴍ ﴎ ﴏ ﴐ ﴑ ﴒ ﴓ ﴔ ﴕ ﴖ ﴗ ﴘ ﴙ ﴚ ﴛ ﴜ ﴝ ﴞ ﴟ ﴠ ﴡ ﴢ ﴣ ﴤ ﴥ ﴦ ﴧ ﴨ ﴩ ﴪ ﴫ ﴬ ﴭ ﴮ ﴯ ﴰ ﴱ ﴲ ﴳ ﴴ ﴵ ﴶ ﴷ ﴸ ﴹ ﴺ ﴻ ﴼ ﴽ ﴾ ﴿ ﵀ ﵁ ﵂ ﵃ ﵄ ﵅ ﵆ ﵇ ﵈ ﵉ ﵊ ﵋ ﵌ ﵍ ﵎ ﵏ ﵐ ﵑ ﵒ ﵓ ﵔ ﵕ ﵖ ﵗ ﵘ ﵙ ﵚ ﵛ ﵜ ﵝ ﵞ ﵟ ﵠ ﵡ ﵢ ﵣ ﵤ ﵥ ﵦ ﵧ ﵨ ﵩ ﵪ ﵫ ﵬ ﵭ ﵮ ﵯ ﵰ ﵱ ﵲ ﵳ ﵴ ﵵ ﵶ ﵷ ﵸ ﵹ ﵺ ﵻ ﵼ ﵽ ﵾ ﵿ ﶀ ﶁ ﶂ ﶃ ﶄ ﶅ ﶆ ﶇ ﶈ ﶉ ﶊ ﶋ ﶌ ﶍ ﶎ ﶏ ﶐ ﶑ ﶒ ﶓ ﶔ ﶕ ﶖ ﶗ ﶘ ﶙ ﶚ ﶛ ﶜ ﶝ ﶞ ﶟ ﶠ ﶡ ﶢ ﶣ ﶤ ﶥ ﶦ ﶧ ﶨ ﶩ ﶪ ﶫ ﶬ ﶭ ﶮ ﶯ ﶰ ﶱ ﶲ ﶳ ﶴ ﶵ ﶶ ﶷ ﶸ ﶹ ﶺ ﶻ ﶼ ﶽ ﶾ ﶿ ﷀ ﷁ ﷂ ﷃ ﷄ ﷅ ﷆ ﷇ ﷈ ﷉ ﷊ ﷋ ﷌ ﷍ ﷎ ﷏ ﷐ ﷑ ﷒ ﷓ ﷔ ﷕ ﷖ ﷗ ﷘ ﷙ ﷚ ﷛ ﷜ ﷝ ﷞ ﷟ ﷠ ﷡ ﷢ ﷣ ﷤ ﷥ ﷦ ﷧ ﷨ ﷩ ﷪ ﷫ ﷬ ﷭ ﷮ ﷯ ﷰ ﷱ ﷲ ﷳ ﷴ ﷵ ﷶ ﷷ ﷸ ﷹ ﷺ ﷻ ﷼ ﷽ ﷾ ﷿ ﭼ[١٦]

والترقي والتصعيد في المعاني، مظهر من مظاهر الإعجاز، يتسع لينتظم مباحث عدة من مباحث البلاغيين، فأنت تجده قريباً من مبحث التخلص، القائم على مراعاة الملاءمة بين المعاني والربط فيما بينهما، مع الأخذ في الحسبان حالة المتلقي النفسية، الذي يهيأ: فيتهيأ للانتقال من معنى إلى آخر في لطف خفي: يدركه الذكي [١٧]، وقد حكى ابن أبي الإصبع عن أصحاب الإعجاز أنه نظراً لدقة التخلص ولطفه فقد عدوه وجه الإعجاز فقال: (وقد ذهب أصحاب الإعجاز إلى أنه وجه الإعجاز وهو دقيق في عين الغبي، خفي يخفى على غير

---

(١١) الانتصاف على هامش الكشاف، لابن المنيرالإسكندري: ٥٨٧/١.

(١٢) الأعراف: ١٩٥.

(١٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي، ت.مصطفى عبدالقادر عطا (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/١، ١٤٠٨هـ: ٣١٣/٣. (ويقصدبالرابع الأعين، والثالث الآذان في تتمة الآية)

(١٤) التبيان في البيان لشرف الدين حسين الطيبي، ت. عبدالستار حسين زموط (القاهرة، داروهبة): ٤٩١-٤٩٢.

(١٥) الحشر: ٢٤٠.

(١٦) الإسراء: ٢٣.

(١٧) انظر: شروح التخليص، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت، /٥٣٥،٤.

الحذاق من ذوي النقد، وهو مبثوث في الكتاب العزيز من أوله إلى آخره، فإنك تقف من الكتاب العزيز على مواضع، تجدها في الظاهر فصولاً متنافرة لا تعرف كيف تجمع بينهما، فإذا أنعمت النظر وكنت ممن له درجة بهذه الصناعة، ظهر لك الجمع بينها(١٨).

وهذا ظاهر في السور الطوال، أو السور القصيرة ذات الأغراض المتعددة، والذي يشف عنه كلام العلماء في حسن التخلص، أنه انتقال من معنى إلى معنى آخر مستقل، أما الترقي وتصعيد المعاني، فهو انتقال بين المعاني على سبيل تصعيدها، والوصول إلى ذروتها في المعنى الواحد، وليس المراد الانتقال بين المعاني المستقلة، وهو ما سيجتهد الباحث فيه أثناء تأمله في دقائق الترقي والتصعيد في سورة القارعة.

وحينا نراه يتجلى قريباً من مبحث (حسن النسق) وذكره ابن الأثير الحلبي مرة تحت اسم (حسن النسق والانسجام) ومرة تحت اسم (التعريج) فقد قال عن المسمى الأول: "أن تأتي الكلمات النظمية والنثرية متتاليات متلاحمات تلاحماً سليماً" (١٩)، وعن المسمى الثاني قال: " هذا الباب يسمى بحسن الارتباط، ويسمى حسن الترتيب ويسمى حسن النسق وحقيقته ائتلاف الكلام بعضه ببعض، حتى كأنه أفرغ في قالب واحد وأكثر ما يوجد هذا النوع مستعملاً في كتاب الله تعالى، الدال على الإعجاز"(٢٠).

وذكره ابن حجة فقال:" أن يأتي المتكلم بكلمات من النثر، والأبيات من الشعر متتاليات متلاحمات تلاحماً مستحسناً مستبهجاً، وتكون جملها ومفرداتها منسقة متوالية".(٢١)

---

(١٨) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الأصبع المصري. الدكتور حفني محمد شرف (مصر، وزارة الأوقاف، لجنة إحياء التراث) ١٤١٦هـ، ٤٣٣.

(١٩) جواهر الكنز: ٢٩٧.

(٢٠) المصدر نفسه: ١٥٥.

(٢١) خزانة الأدب: خزانة الأدب للبغدادي، ت/ عبد السلام هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط/٣، ١٤٠٩هـ) ٣٨٨/٢.

وهذا أظهر ما يكون، حين تكون السورة ذات غرض واحد، كما هو الحال في سورة القارعة.

وحتى مبحث الاطراد نجد للترقي حضوراً فيه وشبها، غير أن الاطراد خاصاً في الأسماء، والترقي أوسع منه وأشمل.

فالاطراد هو: الإتيان بأسماء في النص مرتبة ترتيباً تصاعدياً أو تنازلياً.

قال ابن رشيق في العمدة: "ومن حسن الصفة أن تطرد الأسماء من غير كلفة ولا حشو فارغ، فإنها إذا اطردت دلت على قوة طبع الشاعر وقلة كلفته ومبالاته بالشعر ومن ذلك قول الأعشى:(٢٢)

أقيس بن مسعود بن قيس بن خالد وأنت امرؤ ترجو شبابك وائل)(٢٣)

ومن شواهده في القرآن:

قوله تعالى: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ (٢٤).

وهنا لم يذكر الآباء على الترتيب، وإنما حسب الملة، فالأب في الملة إبراهيم، ثم رتب الأسماء تنازليا.

وقوله سبحانه: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ (٢٥).

فجاء الترتيب هنا حسب الأقدمية؛ لأنها توالي أحداث تاريخية.

وقوله: ﭽ ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ ﭮ ﭯ ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ ﭼ (٢٦).

فجاء ترتيب الأسماء هنا حسب الأقدمية في الرسالة والنبوة.

إذا فهذا البحث(الترقي والتصعيد) هو من الاتساع بحيث ينتظم مباحث عدة، وترى بلاغته يُدلُّ بها التقديم حينا، (حسن التخلص) أو (حسن النسق) أو الاطراد وهذه المباحث تتكامل ولا تتفاضل، والرقي

---

(٢٢) انظر ديوان الأعشى، شرحه مهدي محمد ناصر (بيروت، دار الكتب العملية، ط/١، ١٤٠٧) : ١٥٦.

(٢٣) العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، ت.د عفيف نايف حاطوم (بيروت، دار صادر، ط/١، ١٤٢٤هـ) ٨٢/٢.

(٢٤) يوسف: ٣٨.

(٢٥) التوبة: ٧٠.

(٢٦) الشورى: ١٣.

بعبقرية هذه اللغة، وإدراك أسرارها لا يمكن الوقوف عليه، إلا من خلال رؤية شاملة تعتد بكل جهد تناول الدرس البلاغي، وحرص على تلمس القيم الجمالية، والكشف عنها.

وهذا ما سيتبين في أثناء تأمل دراسة سورة القارعة، وما في آياتها من ترقٍ وتصعيد للمعاني.

ثانياً: الجانب التطبيقي

- موضوع سورة القارعة، ومقامها:

سورة القارعة مكية، أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة القارعة بمكة(٢٧).

وموضوعها، موضوع كوني عظيم، ومقامها هو عرض بياني لمشهد مهول، تتناول آثاره الناس والجبال، فيبدو الناس ذوو الأحلام والعقول فيه، سفهاء، حائرين (كالفراش المبثوث) لا يملك أحدهم لنفسه وجهه، ولا يعرف له هدفاً، وتبدو الجبال الراوسي الثابتة الراسخة (كالعهن المنفوش) خفيفة تتقاذفها الرياح، وتعبث بها، ثم تنتهي السورة في هذا المشهد المفزع إلى ما يؤول إليه الناس، فناج في (عيشة راضية) وهالك في (نار حامية).

كل ذلك وغيره من المشاهد، تدرجت السورة في تصويره، وترقت في الكشف عنه، فتنامت المعاني وتصاعدت في مبان معبرة، وألفاظ دالة مصورة، انبنى بعضها على بعض بنظم عجيب صعد بمعانيها إلى سلم مقاصدها، وتضافرت عناصر النظم على تجلية ذاك الحدث القارع، وتصويره في تسلسل أسلمنا فيه مطلع السورة المفزع (القارعة) إلى نهاية مؤلمة للمفرطين (نار حامية).

والمتأمل لسورة القارعة، يلحظ أن الترقي وتصعيد المعاني جاء من أول لفظة فيها، وذلك بالنظر إلى خواتيم السورة قبلها (العاديات) (

(٢٧) انظر:الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (بيروت، دار الكتب العلمية، ط/١، ١٤١١هـ) ٨/٦٠٥.

أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ (٩) وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ (١٠) إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ)[٢٨].

فإنه سبحانه لما ختم السورة بقوله: (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) فكأنه قيل: وماذاك اليوم؟

فقيل: هي القارعة[٢٩].

قال البقاعي:

"لما ختم العاديات بالبعث، ذكر صيحته فقال: (القارعة) أو الصيحة أو القيامة، سميت بها لأنها تقرع أسماع الناس وتدقها دقاً شديداً عظيماً، مزعجاً بالأفزاع والأجرام الكثيفة بالتشقق والانفطار، والأشياء الثابتة بالانتثار[٣٠].

فهذا القرع، وهذا الدق الشديد، وهذا القرع الذي يحدثه لفظ (القارعة) المتصاعد فجأة في بدء السورة، يهيئ النفس أن ثمة هولاً يحبس الأنفاس، ويفزع الأسماع والقلوب بقرعها حساً ومعنى.

عناصر النظم المؤثرة في الترقي وتصعيد المعاني في السورة:

إن من ينعم النظر في نظم هذه السورة العظيمة، ثم يمعن الفكر في دلالات نظمها يجد أنه قد اجتمع فيها من عناصر النظم المؤثرة، ومن مظاهر البيان المعبرة، ما جعل الغرض البلاغي من نزولها يتجلى في معاني كلمها، ويستبين من مقاطع فواصلها، فكان اجتماع تلك العناصر النظمية، وانضمام هذه الظواهر اللغوية أمارة من أمارات إعجازها، ولعلنا نقف وقفات بيانية مع كل عنصر على حدة، حتى نعرف الوظيفة اللغوية التي أداها في النظم الحكيم، وحتى نستجلي درجة التصعيد البياني التي نهض بها في سلم مقاصد السورة الكريمة، وذلك وفق التدرج النظمي الآتي:[٣١]

---

(٢٨) العاديات: ٩-١١.

(٢٩) انظر التفسير الكبير للفخر الرازي (بيروت، دار الكتب العلمية، ط/١، د، ت) ٦٦/٦٢.

(٣٠) نظم الدرر: ٥١٣/٨.

(٣١) أسلوب الترقي وتصعيد المعاني في سورة الزلزلة: ٧٤.

١- براعة الاستهلال

افتتحت السورة بقوله سبحانه ﴿القارعة﴾ ويعد هذا الافتتاح من براعة الاستهلال، إذ تضمنت الإشارة إلى ما سبق الكلام من أجله في أبلغ عبارة،
وأجزل معنى، إذ الافتتاح بلفظ ﴿القارعة﴾ افتتاح مهول، وفيه تشويق إلى معرفة ما سيخبر به(٣٢).

ويدور معنى قرع، حول الضرب، والدق، والشدة، يقال: قرعت الشيء أقرعه، ضربته، والقارعة: الشديدة من شدائد الدهر، وسميت بذلك؛ لأنها تقرع الناس، أي تضربهم بشدتها، قال تعالى ﭽ ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﭼ(٣٣) أي داهية تفجؤهم(٣٤).

والمراد بـ "القارعة": الساعة التي يقرع قلوب الناس هولها، وعظيم ماينزل بهم من البلاء عندها، وذلك صبيحة لا ليل بعدها، وهي من أسماء يوم القيامة، وهذا هو رأي جمهور المفسرين، وأن المراد بها: القيامة نفسها التي مبدؤها النفخة الأولى، ومنتهاها فصل القضاء بين الخلائق(٣٥).

وقد تضمنت هذه اللفظة معنى القرع والهول واللطم، فهي تقرع القلوب بهولها، والأسماع بشدة صوتها، ومن هنا ناسب الافتتاح بها في هذه السورة، ففي ذلك تحقيق لغرض السورة وكشف له، فالسورة كلها

---

(٣٢) التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور، (نسخة مصورة عن الدار التونسية للنشر) ٥٠٩/٣٠.

(٣٣) الرعد: ٣١.

(٣٤) انظر: معجم مقاييس اللغة: مادة قرع، وبصائر ذوي التمييز: مادة قرع، واللباب في علوم الكتاب لأبي حفص الحنبلي، ت. عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢/٢٠١١) ٤٧٠/٢٠.

(٣٥) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (مصر، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط/٣، د. ت) ٥٧٣/٢٤.

عن هذه القارعة، حقيقتها، وما يقع فيها، وما تنتهي إليه، فهي تعرض مشهداً من مشاهد يوم القيامة(٣٦).

والمتأمل في لفظ (قرع) حروفه كلها جهرية، وحرف القاف الذي بدئ به يحمل صفاتٍ كلها توحي بالقوة، فهو حرف انفجاري، شديد، مجهور، وفيه استعلاء وقلقلة، والقلقلة: اضطراب الصوت عند النطق بالحرف، حتى يسمع به نبرة قوية(٣٧).

ولم يفت على العلماء هذه الدلائل الصوتية للألفاظ، وأثرها في المعاني، فنرى إشارات عند ابن جني، والزمخشري، والزركشي، والعلوي وغيرهم، وكان ابن جني حفيا بأصوات الحروف، وذا حس مرهف بتتبع الظواهر الصوتية، ومنها قوله: "فإن كثيراً من هذه اللغة وجدته مضاهيا بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عبر بها عنها، ألا تراهم قالوا: قضيم في اليابس، وخضيم في الرطب، وذلك لقوة القاف، وضعف الخاء، فجعلوا الصوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف"(٣٨).

ونراه يلفت النظر لقوة اللفظ وأثره في قوة المعنى، يقول: "وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعاني فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة المعنى"(٣٩).

إن لفظة(القارعة) التي افتتح الله بها السورة تحمل في رحمها معاني تُصعد الحدث في ذهن المتلقي، وتعظمه في حق شاهد الحال وقتها، بدءاً من لفظها (القارعة) المفزع للقلوب والأسماع، بدلالته على القرع، والضرب، والدق بشدة وقوة، وجرسه الذي لا يقل فزعاً، بما تحويه صفات حروفه من جهر، وشدة، وقلقة، وانفجار، توحي بهول حي لايقاس، ولكن وقعه على النفوس يبلغ مداه.

---

(٣٦) في ظلال القرآن لسيد قطب (بيروت، دار الشروق) ط/ ١٣، ١٤٠٧هـ: ٣٩٦٠/٦

(٣٧) انظر: علم اللغة العام (الأصوات) للدكتور كمال محمد بشر (القاهرة، دار المعارف ط/٧، ١٩٨٠)

(٣٨) الخصائص لابن جني، ت. محمد على النجار (نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية) . ٦٥/١.

(٣٩) المصدر نفسه: ١٥٥/٢.(وانظرالكشاف٤٣٩/١، والبرهان:٣٨/٣)

إن خصائص حروف مبنى الفعل وصفاته دالة دلالة تصويرية على المعنى المراد منه في مقام السياق الوارد فيه، وهنا مكمن الدقة في اصطفاء الكلمة المناسبة ثم توظيفها صوتياً ودلالياً في خدمة المعنى المراد، لتسهم في تأدية المقصود الأعظم، الذي وردت من أجله السورة الحكيمة، وهذا هو باب البلاغة ولبابها.

وهذا الاصطفاء للألفاظ وما تحويه من جرس وإيقاع، نرى أثره في مسامع وألباب أرباب الفصاحة، حتى هز نفوسهم، وأذكى مشاعرهم؛ مما حدا بكبرائهم أن يتعاهدوا على ألا يسمعوه، والتشويش عليه خلال قراءته ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾[٤٠].

٢- الاستفهام والتكرار

قوله تعالى ﭽ ﭾ ﭿ ﮀ ﮁ ﮂ استفهام على جهة التعظيم والتفخيم لشأنها، كقوله تعالى: ﭽ ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ واختلفوا في سبب تسمية القيامة بالقارعة، فقيل: المراد بالقارعة: الصيحة التي يموت منها الخلائق؛ لأنها تقرع أسماعهم.

وقيل: أن الأجرام العلوية والسفلية يصطكان، فيموت العالم بسبب تلك القرعة، فلذلك سميت القارعة، وقيل: تقرع الناس بالأهوال، كانشقاق السموات وأقطارها وتكوير الشمس، وانتشار الكواكب، ودك الجبال ونسفها وطي الأرض، وقيل: لأنها تقرع أعداء الله بالعذاب[٤١].

وهذا الحدث العظيم المفزع يتأكد بقوة، ونرى فيه تصعيداً للمعنى من خلال الاستفهام أولاً، (ما) والاستفهام للتعجب، مستعمل في التهويل على طريقة المجاز المرسل المركب؛ لأن هول الشيء يستلزم تساؤل الناس عنه[٤٢].

---

(٤٠) فصلت: ٢٦.

(٤١) اللباب في علوم الكتاب: ٢٠/٤٧٠.

(٤٢) انظر: البحر المحيط لأبي حيان، ت: عادل عبدالموجود، علي محمد معوض (بيروت: دار الكتب العلمية، ط/١، ١٤١٣هـ) ٨/٥٠٣، والتحرير والتنوير: ٣٠/٥١٠.

والتكرار ثانياً، إذ فيه تهويل لأمرها، وتفخيم لشأنها؛ يدل على هذا التهويل وذلك التعظيم، الإظهار الوارد فيها وحقه الإضمار، إذ لو جاء الكلام على مقتضى الظاهر لقيل: القارعة ماهية، ولكن جاء الكلام هنا على خلاف مقتضى الظاهر، لما في اللفظ المكرر من التهويل، والترويع، والتعظيم، كما أن فيه تفخيماً لشأنها، وزيادة في التهويل والتقرير(٤٣).

وهنا نلحظ أن في المعنى ترقياً إثر ترقٍ، ففي الاستفهام تهويل، وفي الإظهار والتكرار ترويع، فالتعبير بالاسم الظاهر هنا، دون الاكتفاء بضميره حقق المعنى وعززه، ورقاه وصعده، وجعل للنفوس مجالا كي تتفكر فيه وعظيم شأنه.

ثم يعيد سبحانه الاستفهام مقروناً بفعل يدل على التجهيل، وتصعيد آخر في المعنى، يزيد من الهول هولا، ويعظم شأن هذه القارعة (وما أدراك ما القارعة)"زيادة تهويل أمر القارعة و(ما) استفهامية، صادقة على شخص، والتقدير: وأي شخص أدرا ك، وهو مستعمل في تعظيم حقيقتها وهولها".

فلا أحد يحيط بها خبراً، ولا يدرك أحد كنهها، فلا تبلغه عقولهم، ولا تحيط بها علومهم، فهم لم يعهدوا مثلها، فهي حالة لا يحيط أحد بها حتى يعلمك أمرها، وبيان خبرها(٤٤).

قال أبو حيان: "ما استفهام لا يراد حقيقته، بل التعظيم، وأكثر ما يربط بتكرار المبتدأ، إذا أريد معنى التعظيم والتهويل، فهي مبالغة في التهويل، والمعنى أن فيها ما لم يدر ولم يحط به وصف من أمورها الشاقة، وتفصيل أوصافها"(٤٥).

ومن يمعن النظر في الآيات السابقة (القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة) يدرك فيها صعود المعاني وظهورها، في ساحة

---

(٤٣) انظر: التحرير والتنوير: ٣٠/٥١٠، وحاشية القونوي على تفسير البيضاوي(بيروت، دار صادر، د.ت) : ٤/٦٨٨.

(٤٤) حاشية القونوي على البيضاوي: ٤/٤١١.

(٤٥) البحر المحيط: ٨/٣١٥.

التدرج المعنوي في عناصر الترقي الواردة في هذا التركيب، وذلك من خلال الابتداء باسم القارعة المؤذن بأمر عظيم، والاستفهام المستعمل في التهويل، والإظهار في مقام الإضمار أول مرة، والاستفهام عما ينبئ بكنه القارعة، وتوجيه الخطاب إلى غير معين(٤٦)، فالاستفهام لم يأت لأن المسئول يعلم الجواب فيقرره به؛ وإنما هو لتصعيد المعنى المتمثل بالهول الحاصل، حتى أن لا أحد يعلم ما القارعة؟ ولا يمكنه تصورها وهو أسلوب يثبت المعنى المسوق من أجله، ويقرره، ويؤكده في النفوس، كي ترعوي، وتسلك صراطه المستقيم.

ثم عوداً على الإظهار في مقام الإضمار، ثاني مرة ﴿ما القارعة﴾ في موضع يمكن إضمارها فيه لتقدم ذكرها، ولقربها منها، بحيث لم يستدع طول الفصل ذكرها مرة أخرى، ولكن خرج في نسق النظم على خلاف مقتضى ذلك، فأظهرت ﴿القارعة﴾ باسمها ولم يكتف بضميرها العائد إليها عن رسمها؛ لأن المقام اقتضى ذلك، فالمقام مقام تهويل وتعظيم(٤٧).

ثم هذا التكرار المفزع (القارعة، ما القارعة، وما أدراك ما القارعة)، إيقاعات مدوية على القلوب والأسماع، تضافر فيه اللفظ والجرس الذي تشترك فيه حروفه كلها، جهرية قوية، ليتقرر في النفوس ذاك الهول الذي لا يعلمون كنهه، وما أشد ذلك وأفزعه أن تقدم النفس على شيء بالغ الهول، لا يمكن لخيالها أن تتصوره!!.

ويدرك سيد قطب رحمه الله بتأمله ذلك فيقول معلقاً على هذه الآيات ﴿القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة﴾:"لقد بدأ بإلقاء الكلمة مفردة كأنها قذيفة ﴿القارعة﴾ بلا خبر ولا صفة، لتلقي بظلالها وجرسها الإيحاء المدوي المرهوب، ثم أعقبها سؤال التهويل ﴿ما القارعة﴾، فهي الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهش والتساؤل، ثم أجاب بسؤال

(٤٦) انظر: التحرير والتنوير: ٣٠/٥١٠.

(٤٧) انظر: التحرير والتنوير: ٣٠/٥١٠.

تجهيل (وما أدراك ما القارعة) فهي أكبر من أن يحيط بها الإدراك، وأن يلم بها التصور"(٤٨).

٣- الظرف (يوم)

الظرف في الأصل اللغوي هو ما كان وعاءً للشيء، لذا سميت الأواني ظروفاً لكونها تستوعب ما فيها، كما سميت الأزمنة والأمكنة ظروفاً، لأن الأحداث والأفعال تحصل فيها، فهي كالأوعية لها (٤٩).

وقوله سبحانه (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث)(٥٠).

"يوم" مفعول فيه منصوب بفعل مضمر دل عليه وصف القارعة، لأنه في تقدير: تقرع، أو دل عليه الكلام كله فيقدر: تكون، أو تحصل، يوم يكون الناس كالفراش.

وجملة " يوم يكون الناس" مع متعلقها المحذوف، بيان للإبهامين الذين في قوله "ما القارعة" وقوله "وما أدراك ما القارعة".

وليس قوله (يوم يكون الناس) خبراً عن (القارعة) إذ ليس سياق الكلام لتعيين يوم وقوع القارعة.

والمقصود بهذا التوقيت زيادة التهويل، بما أضيفت إليه (يوم) من الجملتين المفيدتين أحوالاً هائلة، إلا أن شأن التوقيت أن يكون بزمان معلوم، وإذ قد كان هذا الحال الموقت بزمانه غير معلوم مداه، كان التوقيت له إطماعاً في تعيين وقت حصوله، إذ كانوا يسألون متى هذا الوعد ؟ ثم توقيته بما هو مجهول لهم إبهام آخر للتهويل والتحذير من مفاجأته، وأبرز في صورة التوقيت للتشويق إلى البحث عن تقديره، فإذا باءَ الباحث بالعجز عن أخذٍ بحيطة الاستعداد لحلوله بما ينجيه من مصائبه التي قرعت به الأسماع في آي كثيرة(٥١).

---

(٤٨) في ظلال القرآن: ٦/٣٩٦٠.

(٤٩) انظر: لسان العرب: مادة ظرف.

(٥٠) القارعة: ٤.

(٥١) التحرير والتنوير: ٣٠/٥١١-٥١٢.

وهذا الظرف (يوم) الذي يفيد حصول شيء ما في زمن يحدد به، والمخاطبون أطمع ما يكونون شوقاً لمعرفة هذا اليوم، ثم يأتي السياق بعد قرع أسماعهم وقلوبهم بذكر ذلك اليوم الذي ينتظرونه، لكنه كان مخيباً لآمالهم ومفزعا لهم، إذ جاء توقيته مقروناً بما يزيدهم جهالة بأوانه، ويزيدهم خوفاً من ذاك الهول الذي ينتظرهم ولا يعلمون زمانه، وهذا الظرف المسوق لزيادة الجهالة يصعد الحدث في ذهن المتلقي، فإن كان كافراً فعليه إعادة النظر في مآله، وإن كان مؤمناً فيزدد إيماناً ويقيناً فيتقي ويضاعف أعماله، وهو مقصد من مقاصد الخطاب القرآني للمكلفين.

{ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ }(٥٢).

٤– التشبيه

كانت الآيات الثلاث الأول تكثيفاً للسؤال عن القارعة وهولها، والنفس أشد ما تكون شوقاً لمعرفة ما القارعة، وما هي ؟

ولكن الإجابة لم تأت بماهيتها، فماهيتها فوق الإدراك والتصور.

(يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش)(٥٣).

إجابة كشف عنها التشبيه بصورة مرعبة جمعت الحركة المضطربة، واللون القاني، والجرس المعبر، وهذا التصعيد كله للمعنى من خلال هذه الصورة، كي تتملاها العين والأذن، والحس والخيال، والفكر والوجدان.

وهو مقصد من مقاصد التشبيه في زيادة المعنى وضوحاً وتأكيداً(٥٤).

قال ابن الأثير: "وأما فائدة التشبيه في الكلام، فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء، فإنما تقصد به إثبات الخيال في النفس بصورة المشبه به،

---

(٥٢) فصلت: ٣–٤.

(٥٣) القارعة: ٤–٥.

(٥٤) انظر: **كتاب** الصناعتين لأبي هلال العسكري، ت. علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت المكتبة العصرية) ١٤٠٦هـ:٢٤٣.

أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه، أو التنفير عنه، ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها، كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً حسناً يدعو إلى الترغيب فيها، وكذلك إذا شبهتها بصورة أقبح منها كان ذلك مثبتاً في النفس خيالاً قبيحاً يدعو إلى التنفير عنها، وهذا لا نزاع فيه"(٥٥).

بيد أن الجرجاني كعهده أعمق توصيفاً لأثره في النفس حين يقول: "فأول ذلك وأظهره أن أنس النفوس موقوف على تخرُّجها من خفي إلى جلي، وتأتِّيها بصريح بعد مكني، وأن تردَّها في الشيء تعلمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس، وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس، أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: ليس الخبر كالمعاينة " (٥٦).

ثم يحكي لنا أثره في جمال المعاني بقوله:

"واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه، أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني، أو برزت هي باختصار في معرضه، ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورته، كساها أبهة، وكسبها منقبة، ورفع من أقدارها، وشب من نارها، وضاعف قواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها.

فإن كان مدحاً كان أبهى وأفخم، وأنبل في النفوس وأعظم، وأسير على الألسن وأذكر، وإن كان ذماً كان مسه أوجع، ووقعه أشد، وإن كان وعظاً كان أشفى للصدر، وأدعى إلى الفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر".

---

(٥٥) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، ت. محمد محيي الدين عبدالحميد (بيروت، المكتبة العصرية، ١٤١٦هـ) ٣٧٨/١

(٥٥) أسرار البلاغة: ١٢١

(٥٦) انظر: المصدر نفسه: ١١٥-١١٦ بتصرف.

وقوله تعالى: چ ٹ ٹ ٹ ڈ ڈ ڤ چ.

قال قتادة: الفراش: الطير الذي يتساقط في النار والسراج، الواحدة: فراشة.

وقال الفراء: هو الهمج من البعوض والجراد وغيرهما، وبه يضرب المثل في الطيش والهوج، يقال: أطيش من فراشة.

والمبثوث: المتفرق على وجه الأرض (٥٧).

ومن يتأمل هذا التشبيه يجد أن وجه الشبه جاء محذوفاً، وفي ذلك دعوة للنظر في التشبيه ودلالاته، والتنقيب في أسراره والغوص في معانيه، وهو مقصد من مقاصد القرآن چ ڃ ڃ ڃ ڃ چ چ چ چ ڇ ڇ چ.

ولذا نرى دلالات عدة لهذا التشبيه أشار إليها العلماء، قال الزمخشري: "شبههم بالفراش في الكثرة والانتشار، والضعف والذلة، والتطاير إلى الداعي كل جانب، كما يتطاير الفراش إلى النار" (٥٨).

وذكر الرازي وجهاً آخر قال:

" وأما وجه الشبه بالفراش، فلأن الفراش إذا ثار لم يتجه لجهة واحدة، بل كل واحدة منها تذهب إلى غير جهة الأخرى، يدل هذا على أنهم إذا بُعثوا فزعوا واختلفوا في المقاصد، على جهات مختلفة، غير معلومة " (٥٩).

وأضاف صاحب اللباب أوجهاً للشبه كالطيش الذي يلحقهم، وركوب بعضهم بعضاً (٦٠).

ووجه الشبه صادر عن المعنى المستفاد من (كالفراش) ولذا نرى تشبيهاً آخر مقارباً لهذا التشبيه في سورة القمر چ ٱ ب ب ب ٻ ٻ پ پ پ چ(٦١).

---

(٥٧) انظر: معاني القرآن: ٢٨٦/٣، واللباب في علوم الكتاب: ٤٧١/٢٠.

(٥٨) الكشاف: ٧٨٢/٤.

(٥٩) التفسير الكبير: ٦٨/٣٢- ٦٩.

(٦٠) انظر: اللباب: ٤٧١/٢٠.

(٦١) القمر: ٧.

وفي الجمع بين الشبيهين قيل: إن " الناس أول قيامهم من القبور چ ڈ ڤ ڤ چ؛ لأنهم يجيئون ويذهبون من غير نظام، يدعوهم الداعي فيتوجهون إلى ناحية المحشر، فهم حينئذ كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد إنما يتوجه إلى ناحية مقصودة"(٦٢).

ويقرب الشنقيطي ما قرره الواحدي، فيقول: " وقيل: إن وصفها بالفراش في أول حالها في الاضطراب والحيرة، ووصفهم بالجراد في الكثرة، ووحدة الاتجاه چ پ پ ڀ ڀ چ (٦٣) ".

ولأستاذنا الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى كلام جميل حين تحدث عن بلاغة القرآن وإعجازه في توظيفه لأسلوب التشبيه، يقول: "وقد عرض القرآن في مواقف كثيرة لوصف أحوال يوم القيامة مصطنعاً التشبيه وسيلة كاشفة، من ذلك قوله – تعالى -: چ ۇ ۇ ۆ ۆ ۈ ۈ ۇٴ ۋ ۋ ۅ ۅ ۉ ۉ ې ې ى ى ئا ئا ئە ئە ئو ئو ئۇ ئۇ ئۆ ئۆ ئۈ ئۈ ئې ئې ئى ئى ئي ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح تخ تم تى تي ثج ثم ثى ثي چ (٦٤)، قلت: إن تصوير انتشار الخلق في هذا اليوم كثير جداً في كتاب الله، وهو في كل مرة يركز على جانب معين من جوانب الموقف الهائل، ويلقي عليه مزيداً من الأضواء، فهذا التصوير المذكور في سورة "القمر" يركز الضوء الكاشف على ما يتصفون به من استسلام وانقياد يظهر ذلك في الكناية چ ٱ ٻ چ وكونهم عجلين مهطعين نحو من يدعو إلى شيء نكر.

وتجد سورة " القارعة " وهي تلخيص مركز لموقف هذا اليوم، تذكر بعدما تستفتح بهذا القرع المتلاحق چ ڀ ڀ ٺ ٺ ٺ ٺ ٿ ٿ چ. وهذه النغمة الحاسمة كأنها توطئة لوصف أحوال الناس والجبال چ ٿ ٿ ٿ ٿ ٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ ڤ ڤ چ. التشبيه هنا يتناول الكثرة والانتشار على غير نظام، كما تناوله التشبيه هناك، ولكنه يسلط الأضواء على معنى التخاذل والضعف والوهن الذي يكون عليه الناس حين يخرجون من قبورهم، في جو من

---

(٦٢) المحرر الوجيز: ٥١٦/٥.

(٦٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، (القاهرة، مكتبة ابن تيمية، ١٤١٣هـ) : ٤٦٠/٩.

(٦٤) سورة القمر: ٦-٧

الهول والخوف الساحق، التشبيه يصف أنهم تخاذلوا أشد التخاذل، وذهب كل ما فيهم من تماسك فصاروا كالفراش المبثوث، وهو مثل في الوهن والضعف، ويلاحظ أن الفراش وصف بالبث، والجراد وصف بالانتشار، والفرق بين البث والانتشار أن الانتشار فيه فضل تماسك لا يوجد في البث، ولذلك تقول: نشر عليه ثوبه، ولا تقول: بث عليه؛ البث كأنه يكون فيما تفرق، والمبثوث مفعول من "بث"، والمنتشر فاعل من "انتشر" فالبث وقع على الأول، والانتشار حدث من الثاني، هم في التشبيه الأول كالجراد الذي ينتشر بنفسه، وفي التشبيه الثاني كالفراش الذي يبثه غيره؛ لأنه لا فعل له، وهذا التشبيه لا يخلو من المعنى الذي ذكرناه هناك، وهو التصرف غير المنتظم، والذي لا تكون فيه سيطرة على النفس؛ لأن الفراش يرد في كلام العرب مثلاً على الخفة والحماقة والتهافت، ومن كلامهم: أطيش من فراشة، وحلمهم حلم الفراش غشين نار المصطلي(٦٥).

وقوله سبحانه: چ ڤ ڤ ڤ ڦ چ:

والعِهن: الصوف، وقيل: يختص بالمصبوغ الأحمر، أو ذي الألوان، كما في قول زهير:

كأنّ فُتات العِهن في كل منزلٍ نَزَلْنَ به حبُّ الفَنَا لم يُحَطَّمِ(٦٦)

لأن الجبال مختلفة الألوان بحجارتها ونبتها قال تعالى: چ ہ ہ ہ ے ے ۓ ۓ چ.

والمنفوش: المفرق بعض أجزائه عن بعض، ليغزل أو تُحشَى به الحشايا، ووجه الشبه تفرق الأجزاء، لأن الجبال تندك بالزلازل ونحوها، فتتفرق أجزاء(٦٧).

وتشبيه الجبال يوم القيامة بالصوف، صورة مقربة لذهن الإنسان، ليدرك ما سيؤول إليه أمر ذلك الصلب، الطويل، الشامخ، الثابت، ومثبت الأرض الكروية الكبيرة من وضع هش، بعد مراحل البعثرة والتكسر،

---

(٦٥) التصوير البياني للدكتور محمد محمد أبو موسى (القاهرة، مكتبة وهبة ط/ ٤، ١٤١٨هـ) : ٤٣.

(٦٦) انظر: ديوانه، ص: ١٢.

(٦٧) التحرير والتنوير ٥١٢/٣٠.

ليوضح لنا القرآن أن تلك الجزئيات والذرات الترابية، والرملية التي أصبح عليها الجبل يوم القيامة، لا تملك القوة والصلابة، بل هي كالصوف، من حيث الليونة، والضعف، والهون، بل تجاوزت براعة القرآن ودقة ألفاظه في تجسيد الصورة المرادة حداً، بحيث أنه لم يكتف بذكر العهن في سورة المعارج وإنما وصفه بالنفش، ليبعد أي تصور لشيء من التلاصق والصلابة، التي قد يكون عليها الصوف في أحوال غير النفش، كالعهن المشتت قد انتفش لقوة العامل على التشتت والانتشار، والتطاير في الفضاء الشاسع، فنحن بإزاء مشهد تكون فيه الجبال كتلة واحدة، ثم تتناثر في الفضاء، وهذا يعني أن مساحة المشهد آخذة في الاتساع في كل الاتجاهات، هذا التمدد قد أرشدنا إليه التمدد اللغوي بالوصف، "كالعهن المنفوش" (٦٨).

فالتشبيه هنا كأنه يركز على أمرين: الأول ما يكون من اختلاف الألوان في الجبال المتحللة، وهي جدد مختلفة الألوان، فلا تكون كالصوف المنفوش فحسب؛ وإنما تتراءى كالصوف المصبوغ الذي احتوى ألواناً شتى، والشيء الثاني هو الخفة، وصيرورة هذه الرواسي الثقال كأنها تلك القطع السابحة في الهواء " (٦٩).

والمتأمل في مجيء التشبيه جواباً لتلك الأسئلة المحيرة، والمفزعة بنغماتها القارعة يلحظ تصعيداً أخذ بألباب المعاني ورقاها، وحبس معها الأنفاس وصعدها، وذلك من خلال:

١ – تشبيهه بذاك الطائر الضعيف الجاهل، الذي يسعى متهافتاً إلى حتفه من كل جانب، فهو إذا ثار طار في كل اتجاه، فأي فزع تصوره في الأذهان تلك الحالة ؟!

---

(٦٨) انظر من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي (القاهرة، مكتبة نهضة مصر) :٢٠٠، ودراسات فنية في القرآن للدكتور أحمد ياسوف (دمشق، دار المكتبي) ط/١، ١٤٢٧هـ : ٢٢٤– ٢٢٥، وألفاظ الطبيعة في القرآن: ٦٤.

(٦٩) التصوير البياني:٤٣.

٢ – التصعيد بالوصف (المبثوث)، فقد زاد ضعفهم ضعفاً، وتخاذلهم تخاذلاً، لما يحمله دلالة اللفظ من التفرق، والاختلاف، والاضطراب.

٣ – جملة چڤ ڤ ڤ ڤ ڦ ڦ معترضة بين جملة چٹ ٹ ٹ ٹ ڤ ڤ وجملة چڤ ڃ ڃ چ چ إلخ. وهو إدماج لزيادة التهويل (٧٠).

٤ – وإعادة كلمة "تكون" مع حرف العطف، للإشارة إلى اختلاف الكونين، فإن أولهما كون إيجاد، والثاني كون اضمحلال، وكلاهما علامة على زوال عالم، وظهور عالم آخر (٧١).

وهذا التكرار ناسب السياق قبله في زيادة التهويل(التصعيد) وتعظيم المنتظر(٧٢).

---

(٧٠) التحرير والتنوير: ٥١٢/٣٠.

(٧١) المرجع نفسه: ٥١٣/٣٠.

(٧٢) انظر: التفسير الكبير: ٦٩/٣٢.

٥- تشبيه الجبال بالعهن المنفوش

لفظة الجبال وتعريفها بالألف واللام، وإفادته الاستغراق الشامل لكل الجبال، التي عهدوها ورأوها أمامهم، أو سمعوا عنها، وعظمتها في أخبارهم ومجالسهم، فهم يدركون بلاغة هذا التشبيه وغايته، وهو ما قصد إليه القرآن في تصعيد المعنى وترقيه في أذهان متلقيه، فإذا كانت هذه القارعة صيرت الجبال على عظمتها، وشدة صلابتها إلى عهن منفوش "فكيف يكون حال الإنسان عند سماعها، فالويل ثم الويل لابن آدم إن لم تتداركه رحمة ربه"(٧٣).

إن هذا التشبيه منتزع من صميم البيئة التي عاش فيها أهل مكة، فالجبال أمام أعينهم يبصرونها كل صباح ومساء، ويدركون عظمتها وضعفهم أمامها وقلة حيلتهم، فكم تحكمت في كثير من عيشهم، وأجبرتهم على أشياء لا يحبونها، وحدت من امتدادهم وقيدتهم بين جبليها، والعربي يأنف القيد بطبعه، ولكنه الجبل الذي لا يمكنه إلا أن يذعن لقوته، ومعلقاتهم وأشعارهم حافلة بذكر الجبال وأسمائها.(٧٤)

ولعظمة هذه الجبال ومكانتها في نفوسهم، وأنها ترمز للثبات والقوة، كان عرض ملك الجبال على الرسول ρ بعد ما كذبه قومه، قال: فناداني ملك الجبال وسلم علي، ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (٧٥)، فقال له رسول الله ρ:بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً (٧٦).

---

(٧٣) المصدر السابق: ٦٩/٣٢.

(٧٤) فيذبل وثبير امرئ القيس، وضرغد طرفة، ومحجر وفردة لبيد، وخزازى عمر بن كلثوم، وثهلان الحارث بن حلزة، وعلم السعدي لعنترة، وقنان زهير بن أبي سلمى) انظر: شرح المعلقات السبع للزوزني: ٢٤، ٣٥، ٥٦، ٦٤، ٨٣، ١١١، ١٣٩.

(٧٥) الأخشبان هما جبل أبي قيس شرق المسجد الحرام وارتفاعه ٤٢٠م تقريباً، وجبل قعيقعان.

(٧٦) رواه مسلم كتاب الجهاد والسير برقم ١٧٩٥.

يا لهول ذاك الشعور الذي يملأ نفوسهم بالهيبة والقوة، لهذه الجبال الراسية، ثم يرونها كالصوف الذي يدوسونه بأقدامهم، ومنفوش تتلاعب بها الرياح، فحالها يفوق تصورهم، ولكنه حال ومشهد للجبال يتناسق مع ظل الفزع، ويتجلى الفزع فيه، وكأنما الجبال مذعورة مع المذعورين.

٥- الشرط والجزاء

لقد جرى توظيف أسلوب الشرط وجزائه في السورة الكريمة، في مقام خاتمتها توظيفاً، أسهم مع الفاء في إبراز نتيجة القارعة، وأبان عن حصيلة إيقاف كل إنسان على ماهية عمله في صورة مذهلة، تقوم عليها الشواهد الناطقة، وتقررها البراهين الصادقة، فوقع أسلوب الشرط بأداته وجملتيه في تصعيد المعنى، والوصول إلى قمته موقعاً عجيباً في تقسيم الناس بحسب نتائج أعمالهم، وفرز مآلاتهم، قسمة لا تقبل الخلط ولا يتسرب إليها الاضطراب، مبنية على طبيعة العمل الدنيوي، مؤسسة عليه، فمادة العلم دنيوية ونتيجتها أخروية، وقانونها الجزاء من جنس العمل بعد البيان والإعذار في الحياة الدنيا چ ڦ ڄ ڄ ڃ ڃ ڄ ڄ ڃ ڃ چ چ ڇ ڇ ڇ ڇ ڍ ڍ ڌ ڌ ڎ ڎ ڈ ڈ چ.

فتأمل: كيف وُظف جواب الشرط، وهو نتيجة تقع في الآخرة، ليكون على فعل الخير -الذي هو فعل الشرط – لكل ذي لبّ ليغتنم حياته في الدنيا في عمل ما يرفعه ويصعد به في تلك المقامات التي تنقطع فيها سائر الأعمال ولا تنفع فيها الآهات ولا الزفرات چ ڤ ڤ ڤ ڦ ڤ ڤ ڦ ڦ ڄ ڄ ڃ ڃ ڄ چ.(٧٧)(٧٨)

وهذا الشرط وجزاؤه بيّن ما أُبهم في ذلك اليوم، وفي هذا البيان بعد الإبهام إثارة وتنبيه، تجعل النفس متشوقة إلى معرفة ما كانت تتطلع إليه من خبر، وفي هذه الإثارة وهذا التصعيد قدرة على تهيئة

---

(٧٧) الشعراء: ٨٨-٨٩

(٧٨) انظر: أسلوب الترقي في سورة الزلزلة، د. ناصر الخنين ٩٢-٩٣.

النفوس لتثبيت المعاني التي قصد إليها القرآن فتأنس فيها إن كانت من أهل العيشة الراضية، وتذعن للحق إن كانت من أهل الهاوية.

٦- المقابلة

أصل المقابلة عند اللغويين من قابل الشيء بالشيء مقابلة وقبالاً إذا عارضه، فإذا ضممت شيئا إلى شيء قلت: قابلته به.

والمقابلة: المواجهة، والتقابل مثله. (٧٩)

وفي الاصطلاح " أن يؤتي بمعنيين متوافقين، أو معان متوافقة، ثم بما يقابلهما على الترتيب ".(٨٠)

ويلحظ التداخل بينها وبين الطباق، إلا أن العلماء فرقوا بينهما(٨١)، وأول من تفطن لذلك ابن رشيق(٨٢) في العمدة (٨٣)، وأخذه عنه من جاء بعده كابن أبي الأصبع، حيث صرح بالفرق بقوله: الفرق بين الطباق والمقابلة من وجهين:

أحدهما: أن الطباق لا يكون إلا بالجمع بين ضدين، فقط والمقابلة لا تكون إلا بما زاد على الضدين من الأربعة إلى العشرة.

والثاني: أن المقابلة تكون بالأضداد وبغير الأضداد.(٨٤)

والمقابلة أسلوب شائق، وطريقة عرض كاشفة يتخذها القرآن، لأداء الغرض الذي يريد إيصاله للمخاطبين، ويتجلى هذا الأسلوب في سورة القارعة في ثقل الموازين وخفتها، والجزاء المترتب عليها عيشة راضية، أو نار حامية.

---

(٧٩) انظر: لسان العرب مادة قبل.

(٨٠) الإيضاح في علوم البلاغة للقزويني، ت. إبراهيم شمس الدين (بيروت دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٤هـ): ٢٥٩.

(٨١) ومن العلماء من أدخلها في الطباق كالقزويني حيث قال: ودخل في المطابقة ما يخص المقابلة "انظر: الإيضاح:٢٥٩.

(٨٢) انظر: المقابلة في القرآن الكريم للدكتور ابن عيسى باطاهر (عمان، دار عمار) ط١/١٤٢٠، ١، ص١٣.

(٨٣) انظر العمدة: ٣٠٤.

(٨٤) انظر: تحرير التحبير: ١٧٩.

وقد أسهمت المقابلة في تصعيد المعنى إلى ذروته، وذلك من خلال تحديد مآل الناس، بناء على خفة موازينهم وثقلها، فجاءت المقابلة في ختام السورة حاملة معها نهاية التصعيد في المعاني، وذلك من خلال نكات ولطائف تمثلت في:

أ) جمع لفظة" موازينه" إشارة إلى تعدد الأعمال وتنوعها فبسبب هذه الكثرة، وذلك التنوع ثقلت ورجحت(٨٥) كما أن فيه إشارة إلى ثقل هذه الحسنات وعظم قدرها عند الله – سبحانه وتعالى – والمراد بالموازين موازين الحسنات بأن رجحت حسناته على سيئاته(٨٦)

ب) والظرفية من قوله چ چ چ چ ڇ ڇ مستعملة مجازاً في الملازمة(٨٧) وأنهم لا ينفكون عن هذا الرضا فقد تمكنوا منه وأحاط بهم واحتواهم.

ج) مجيء لفظة عيشة مفردة، وفي ذلك إشارة إلى ثبات هذه الحالة، وعدم تغيرها وتبدلها، فهي حالة واحدة من الصفاء والنعيم واللذة والحبور والسرور، بخلاف العيش في الدنيا فإنها متغيرة متقلبة بين النعيم والشقاء (٨٨)

د) چ چ چ چ ڇ تضمنت مجازاً، فهو مجاز عقلي بالإسناد، وعلاقته المفعولية إذ العيشة مرضية لا راضية، إذ الأصل: في عيشة رضي صاحبها بها، ولكن تم إسناد الرضا إلى العيشة لتلبسه بها، بسبب وقوعه عليها، ومجيء هذا المجاز ليدل على أن (عيشة راضية) فاعلة للرضا، وهو اللين والانقياد لأهلها فالفعل للعيشة، لأنها أعطت الرضا من نفسها وهو اللين والانقياد، كالفرش المرفوعة وارتفاعها مقداره كبير، فإذا دنا

---

(٨٥) انظر: المحرر الوجيز:٥/٥١٧.

(٨٦) انظر: تفسير القرآن العظيم: ٤/٥٥٧.

(٨٧) انظر: التحرير والتنوير: ٣٠/٣٥١. (وقد أفرد عزالدين بن عبدالسلام في كتابه مجاز القرآن فصلا عن مجاز اللزوم–ولم يذكر له تعريفا–، وتحته أنواع عدة) ت. محمد مصطفى بن الحاج، (طرابلس، منشورات كلية الدعوة، ط/١) :٢٧٦-٢٩٢.

(٨٨) انظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، ت. عبدالرازق غالب المهدي (بيروت، دار الكتب العلمية، ط/١) ٨/٥١٤.

منها ولي الله اتضعت حتى يستوي عليها، ثم ترتفع، وكذلك فروع الشجرة تتدلى للولي، فإذا تناول من ثمرها ترتفع كقوله تعالى ﭽ ﯓ ﯔ ﭼ [الحاقة:٢٣] وحيثما مشى من مكان إلى مكان جرى معه نهر حيث شاء.(٨٩)

وصيغة اسم الفاعل ﭽ ﭾ ﭼ مشعرة بتوالي النعم عليهم واستمرارها، فنفوسهم راضية، راضية بتجدد الرضا، ويزداد مع كل نعمة يرزقونها، وهذا الرضا يزيد النفس بهجة وحبورا، إذ لا أجلّ من الشعور برضا المتفضل، وقد ضمنت نعيمها، وفي هذا الوصف زيادة ثناء مع الكناية عن الزيادة في إفاضة الإنعام، لأن المرضي عنه يزيده الراضي عنه من الهبات والعطايا فوق ما رضي به هو. (٩٠)

هـ) و ﭽ ﭽ ﭾ ﭾ ﭼ إيجاز قصر فقد تضمن كثيراً من الدلالات الحسية والمعنوية، فهاتان اللفظتان أوجزتا لنا معالم كثيرة، ورغائب وفيرة من نساء وطعام وشراب، وصيغة التعميم تفسح المجال ليتخيل ما يسعده ويرضيه من العيش.

قال القرطبي فالعيشة كلمة تجمع النعيم الذي في الجنة(٩١).

وتأمل سيد قطب هذه اللفظة فقال: ويدعها مجملة بلا تفصيل، توقع في الحس ظلال الرضا وهو أروح النعيم (٩٢)

و) ﭽ ﭽ ﭽ ﭼ

الهاوية النار، فهي مأوى الكافرين ومن خفت موازينه، وفي تشبيه المأوى بالأم إشارة إلى أن هذه النار تهوى بهم وتضمهم إليها كما تضم الأم أولادها إلى صدرها، وفيه دلالة على تمكن هذه النار منهم، وإحاطتها بهم كما يحيط رحم الأم بولدها.(٩٣)

---

(٨٩) انظر: التبيان في إعراب القرآن: ٢٦٨، واللباب: ٤٧٢/٢٠.

(٩٠) انظر: التحرير والتنوير: ٣٤٣/٣٠.

(٩١) الجامع لأحكام القرآن: ١٦٦/١٠.

(٩٢) في ظلال القرآن: ٣٩١٢/٦.

(٩٣) انظر: روح المعاني للآلوسي، ت. علي عبدالباري عطية (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/١، ١٤١٥هـ) ٤٤٩/١٥.

ز) چ ڍ ڌ ڌ ڈ چ

الاستفهام للتهويل وتعظيم شأن الهاوية، وتفظيع هولها، (٩٤) والأصل في (ماهية) (ما هي) فدخلت الهاء للسكت، (٩٥) وفي هاء السكت إشارة إلى هذا المعنى ودلالة عليه من طرف خفي، وذلك أن فيه "إشارة إلى أن ذكرها مما يكرب القلب، حتى لا يقدر على الاسترسال في الكلام، أو إلى أنها مما ينبغي للسامع أن يقرع بهذا الاستفهام سمعه، فيسكت لسماع الجواب وفهمه غاية السكوت ويصغى غاية الإصغاء. (٩٦)

ك) چ ڈ ڈ چ

التنكير في (نار) للتعظيم، وفيه دلالة على أن سائر النيران بالنسبة إليها كأنها ليست حامية، وهذا القدر كاف في التنبيه على قوة سخونتها(٩٧)

وفي وصف النار (بحاميه) من قبيل التوكيد اللفظي، لأن النار لا تخلو من الحمى، فوصفها به وصف بما هو من معنى لفظ نار، فكان كذكر المرادف في قوله چ چ چ چ (٩٨)(٩٩)

وهكذا نرى أسلوب المقابلة، وما انطوى عليه من أسرار، وأثر ذلك في تصعيد المعنى القرآني، فبعد الأهوال التي عانوها من القارعة حتى انبثوا كالفراش، فهم يتطلعون لمآلهم، فكان الجواب مفصلا بقسمته على فريقين، وهذا يشوق النفوس لمعرفة من أيهم هي، فبدأ التصعيد بشيء لم يعهدوه، فأعمالهم توزن وكلٌّ يتحين تلك النتيجة المصيرية، والتي تفصل بها ثقل الموازين أو خفتها، فإن ثقلت، فقد لازمهم الرضا واحتواهم وفارقتهم

---

(٩٤) انظر: التحرير والتنوير: ٥١٥/٣٠.

(٩٥) اللباب: ٤٧٤/٢٠

(٩٦) نظم الدرر: ٥١٥/٨.

(٩٧) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (مصر، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط/٣، د. ت) ٥٧٦/٢٤.

(٩٨) الهمزة: ٦.

(٩٩) التحرير والتنوير: ٥١٥/٣٠.

أحزانهم إلى الأبد، فعيشتهم واحدة على خلاف ما عهدوه في دنياهم، فكل أحوالهم رضى ولين وانقياد، وكل ما لا يخطر على بالهم من نعيم، هو نهاية التصعيد التي عانته نفوسهم، حتى وصلت إلى الرضا، فنسوا بذلك الشدائد والأهوال.

ثم تأخذنا السورة إلى ذروة التصعيد التي تقطع معه الأنفاس، لأولئك الذين خفت موازينهم، ونلحظ فيه تصعيدا هازئا، وهم ينتظرون جزاءهم، وقد بلغت القلوب الحناجر من الهول، فيأتي الجزاء مصدَّراً برمز الرحمة والسكن والمأوى (الأم) فترتقي نفوسهم وتستشرف، ثم تفاجئهم الحقيقة القاسية، أن هذه الأم هاوية! نار حامية! وفيها يكون التصعيد قد وصل بالأنفس منتهاه، موظفا أساليب عدة، كلها تضافرت لبيان المقصد القرآني من ترغيب وترهيب ورحمة وعذاب.

ولعل المتأمل لهذه السورة، لا يغيب عنه نهاية آياتها بالتاء المربوطة، وتنطق هاء ساكنة عند الوقف عليها، وهي من الحروف المهموسة، وختمت آية من آياتها بهاء السكت (ماهيه) ولعل السر في هذا الختم الهامس الساكت، هو الإشارة إلى انقضاء حركة الحياة الأولى في الكون، والإيذان بسيطرة الخوف والدهشة على النفوس والوجوم الذي يغشى الناس چ ھ ہ ہ ہ ے ۓ چ[١٠٠] هذا الهمس مصدره خوف سيطر على النفوس، مما رأت وعايشت من أهوال في الكون والإنسان، حتى أنها فقدت التعبير بأصوات مجهورة، لأن الحدث أعظم من أن يتحمله وعيهم وإدراكهم، وهكذا نرى جمال هذا الأسلوب المترقي تصعيداً في المعاني وأثره في النفوس حد الهمس.

الخاتمة

وبعد، فإني أحمد الله تعالى على ما يسر من إتمام هذا البحث، والذي كان غايته أن نتلمس أسلوب الترقي وتصعيد المعاني في سورة من سور القرآن العظيمة، وهي سورة "القارعة".

ويحسن في خاتمة البحث أن أجمل أبرز ما اهتديت إليه من نتائج خلال هذه الدراسة.

---

(١٠٠) طه: ١٠٨.

١- تبين من المعنى اللغوي أن الإصعاد ليس محصوراً بالصعود، بل إنه يتعدى ذلك إلى الحدور، وهو ما نراه ماثلاً في المعاني القرآنية، فنجد بعض الآيات آخذة في صعود تراتبي من الأدنى إلى الأعلى، وفي موضع آخر نجده من الأعلى إلى الأدنى، وهذا له أثره في بيان إعجاز القرآن من خلال أسلوب الترقي والتصعيد.

٢- لم يظهر أسلوب الترقي والتصعيد كمصطلح عند علماء البلاغة، وإنما وجدنا له إشارات متفرقة، في مواضع تهتم بالدراسات القرآنية، وبيان إعجاز القرآن، ومن أوائل من أشار إليه عبدالقاهر الجرجاني، والزمخشري.

٣- أن أسلوب الترقي والتصعيد، هو من الاتساع بحيث ينتظم عدة مباحث، وهذه المباحث تتكامل ولا تتفاضل.

٤- أن سورة "القارعة" ذات موضوع كوني واحد، تجلّى فيها أسلوب الترقي والتصعيد من بدء السورة حتى نهايتها، في بناء لغوي محكم ترقت فيه المعاني حتى وصلت ذروتها، وعلم كل فريق فيها مآله ومصيره، ثقيلة موازينه راضٍ، وخفيفة موازينه هاوٍ.

٥- أن المتأمل في سورة القارعة يلحظ أن الترقي وتصعيد المعاني جاء من أول لفظة فيها، وذلك بالنظر إلى خواتيم السورة قبلها (العاديات) فإنه سبحانه لما ختم السورة بقوله: (إن ربهم بهم يومئذ لخبير) فكأنه قيل: وما هذا اليوم؟ فقيل: هي القارعة.

٦- أن للإيقاع والجرس أثره في ترقي المعنى المراد وتصعيده، ولم يغفل علماء البلاغة ذلك، بل أولوا الجرس والصوت اهتمامهم، لعظيم أثره في المعنى ودلالته.

هذا ما وفق الله إليه، وأسأله العفو والغفران عما حصل من تقصير ونقصان.

المراجع

[١] إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن العظيم، لأبي السعود (بيروت، دار إحياء التراث) ط/٤، د.ت.

[٢] أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمدالأمين الشنقيطي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ١٤١٣هـ.
[٣] الانتصاف بحاشية الكشاف لابن المنير الإسكندراني، ت. محمد عبدالسلام شاهين (بيروت، دار الكتب العلمية) ط١، ١٤١٥هـ.
[٤] البحر المحيط لأبي حيان، ت: عادل عبدالموجود، علي محمد معوض (بيروت: دار الكتب العلمية، ط/١، ١٤١٣هـ).
[٥] البرهان في علوم القرآن للزركشي، ت.مصطفى عبدالقادر عطا (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/١، ١٤٠٨هـ.
[٦] بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي (بيروت، المكتبة العلمية) د. ت.
[٧] تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لابن أبي الأصبع المصري. الدكتور حفني محمد شرف (مصر، وزارة الأوقاف، لجنة إحياء التراث) ١٤١٦هـ..
[٨] التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور، نسخة مصورة عن الدار التونسية للنشر.
[٩] التصوير البياني للدكتور محمد محمد أبو موسى (القاهرة، مكتبة وهبة) ط/ ٤، ١٤١٨هـ.
[١٠] التفسير الكبير للفخر الرازي (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/١.
[١١] جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري (مصر، مكتبة مصطفى البابي الحلبي) ط/٣، د. ت.
[١٢] الجامع الصحيح للترمذي، ت أحمد محمد شاكر، دار إحياء التراث، د.ت.
[١٣] حاشية الشهاب على البيضاوي لشهاب الدين الخفاجي، ت. عبدالرزاق المهدي (بيروت: دار الكتب العلمية، ط/١.
[١٤] حاشية القونوي على تفسير البيضاوي، دار صادر بيروت، (د.ت).
[١٥] خزانة الأدب للبغدادي، ت/ عبد السلام هارون (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط/٣، ١٤٠٩هـ).
[١٦] الخصائص لابن جني، ت. محمد على النجار (نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية).

[١٧] الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/١، ١٤١١هـ.
[١٨] ديوان الأعشى، شرحه مهدي محمد ناصر (بيروت، دار الكتب العملية) ط/١، ١٤٠٧.
[١٩]روح المعاني للألوسي، ت. علي عبدالباري عطية (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/١، ١٤١٥هـ.
[٢٠]شروح التخليص، بيروت، دار الكتب العلمية، د.ت.
[٢١]الصحاح للجوهري، ت أحمد عبدالغفور عطار (بيروت، دار العلم للملايين، ط/٣، ١٤٠٤هـ)..
[٢٢]العمدة في صناعة الشعر ونقده لابن رشيق القيرواني، ت.د عفيف نايف حاطوم (بيروت، دار صادر) ط/١، ١٤٢٤هـ.
[٢٣] في ظلال القرآن لسيد قطب (بيروت، دار الشروق) ط/ ١٣، ١٤٠٧هـ.
[٢٤]كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ت. علي محمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت المكتبة العصرية) ١٤٠٦هـ.
[٢٥]الكشاف للزمخشري، ت. محمد عبدالسلام شاهين (بيروت، دار الكتب العلمية، ط/١، ١٤١٥هـ).
[٢٦]اللباب في علوم الكتاب لأبي حفص الحنبلي، ت. عادل أحمد عبدالموجود، علي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، ط٢/٢٠١١.
[٢٧]لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الافريقي (بيروت، دار صادر، د.ت).
[٢٨]المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، ت. محمد محيي الدين عبدالحميد (بيروت، المكتبة العصرية) ١٤١٦هـ.
[٢٩] المقابلة في القرآن الكريم، د. بن عيسى باطاهر (دار عمار، الأردن) ط: ١/١٤٢٠.
[٣٠]معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ت/ عبد السلام هارون (بيروت دار الجيل، ١٤٢٠هـ).

[٣١]المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، ت/ محمد سيد كيلاني (بيروت، دار المعرفة، د.ت).
[٣٢]نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، ت. عبدالرازق غالب المهدي (بيروت، دار الكتب العلمية) ط/ ١.

المجلات والدوريات

[٣٣]مجلة العلوم العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود، العدد٩، ربيع الآخر ١٤٣٢هـ
[٣٤]مجلة كلية اللغة العربية، جامعة الأزهر، فرعالزقازيق، مجلد ١١، العدد ١٣

Style Promotion and the Escalation of Meanings in Surat Al-Qaria

Dr. Khaled Muhammed AlUthaim
Assistant Professor
King Khalid Military College
National Guard, Riyadh

Abstract. Promotion and Escalating Meaning Style is one of the means in which The holy Quran abounds. Scholars have celebrated that style, That AlZamakhshari stressed that Semantics only requires the promotion style.

It is one of the accurate researches in rhetoric (styles) of the Holy Quran, I have tried to follow this phenomenon, and to touch how beautiful it is, and also to show its secrets, by applying it on Surat Al-Qari'ah (the striking hour), resorting to the most important rhetorical researches (figures) included in (Surat)Al-Qari'ah, like Simile, Matching, Exordium skillfulness, Condition and Reward, Interrogation. Reiteration.

That style includes a lot of the scholars studies of Rhetoric, these studies consider Suitability and the connection among them, like Metabasis, the good layout and Zigzagging. It has appeared that promotion and escalating meaning style moves among meanings for escalating them, and getting their climax in the one meaning.